ماذا وراء الهجمة الرجعية في سورية؟

بقلم : زيد بن رغبان

سنة ١٩٥٧ ، وبعد أن انتهت معركة السويس الى اهم نصر عربي في هذا القرن، كتب بوف ميري ، رئيس تحرير جريدة « المؤيد » ومؤسسها مقالا نلخصه بكلمتين : « الان بدأت معركة السويس » .

ما كان بوف ميري يعني القناة بالذات ، وانما المنطقة ، فلقد اختلطت فيها الاوراق منذ وبانت العلاقة بالمصالح الاستعمارية غامضة المصير ، وبدأت الجماهير تدرك قدرها الى حد بعيد وتؤمن أن مستقبلها رهن بيقظتها وقوتها ومدى مقاومتها لما يراد لها ... اخذت تتحسس طريقها بكثير من الجد والجرأة واستطاعت ان تخوض معركة الاحلاف في حزم وصبر الى ان فشل المخطط ورجحت الكفة باتجاه الحرية في الاختيار السياسي وتحديد موقف هو الحياد الايجابي ، الذي كان يعني في أحيان كثيرة انحيازا يختلف - حسب الظرف بشدته - الى الاتحاد السوفياتي .

المستهدف الاول في تلك المعركة كان سورية ، ولو أن عبد الناصر هو الذي كان يقود مقاومة شعبنا . ذلك أن الموقع الجغرافي هو الذي يختار القدر السياسي . ومتى افلتت سورية من قبضة الاستعمار فقد مفتاح المنطقة .

لقد اعطتنا تلك المعركة درسا يجب الا ينساه شعبنا ، بل يتوخاه عبر الكفاح الذي سوف يمتد الى زمن قد لا تكفي اعمارنا لرؤية نصره: كانت الطبقة الحاكمة ، مؤسسة ومصالح وأجهزة وأفرادا مع الاستعمار مرتبطة به ارتباط أهداف ومصير ، غير ان ارادة الجماهير قلبت الموازين الى ظفر ، نجم عنه سياسة خارجية حرة ووصول طبقة جديدة الى الحكم ، شعبية من الفلاحين والعمال والبورجوازية الصغيرة . لكن المعركة ما انتهت ولكن سجل شعبنا هذا الظفر العظيم فقد سجل أكثر من هزيمة ... كان كل نصر يتلوه هزيمة ... كل هزيمة يتلوها نصر، والمدة الزمنية بين هذا وتلك لا تتجاوز غمض الجفن في عمر التاريخ : بين قيام الوحدة في وقفة رائعة مع التاريخ ، صوفية الملامح والوجد وانفصالها في يأس وعار أقل من سنين أربع .

لقد اتسمت - خلال ربع قرن - رقعة المعركة فمنطقة الاحلاف ومقاومتها تجاوزت حدود مصر والهلال الخصيب الى الشرق الاوسط كله ، لكن المواقع الاكثر خطورة ما زالت هي هي : مصدر القلق الذي يريد الاستعمار ان يكرهه على الركوع . ومهما تبدلت الخطة ، تظل عينها ، تتبدل صورها لكن معطياتها الاساسية لا تتغير .

يبدو لنا أيضا أن الظروف الاقتصادية العالمية وغلاء الاسعار تدفعان بالاستعمار الى الاستعجال في تنفيذ مخططه فقد بات يرى أن البطء ينجم عنه تراكمات لا خلاص منها وتناقضات لا يعلم أحد الى ماذا يمكن ان تؤدي .

وعلى هذا كثرت الانباء التي تحاول أن تفاجئنا كل يوم بجديد من لقاءات ومفاوضات توهمنا أنها تجيء عفو الخاطر أو اعتباطا كان الصحفة العمياء هي التي توهمين على قدر هذه المنطقة . لكن المفاجأة باتت غير جائزة في الشرق الاوسط . أصبحت اللعبة مكشوفة ، لا نلم بكل خفاياها ، ولو أننا نفهم أن منطق الحساب الدقيق هو الذي يقدر ويقرر ...

ونحن لا يعنينا لقاء او مفاوضة أو بيان ... تعنينا الحقائق الجديدة والعوامل التي دخلت في صميم الاحداث، التي اذا استطاعت العقول الحاسبة أن تحصيها ، فلن تستطيع القوة المهيمنة ان تضبطها . انها في أعماق البشر : رد فعلهم واستجابتهم لمسيرة التاريخ . أول ما يعنينا الجماهير ، وقد باتت قريبة من الوعي الثوري المطلق الذي يرفض الهدنة ، أية هدنة ، مع أي حل ينصف المجتمع وفي اختيار الخط السياسي المنسجم مع القدر التاريخي .

ولقد تبدت في آفاق الامة تباشير الفجر الذي وطد نفسه على ايقاد أنواره : في مصر وراء كاهب ديفيد وكل الاتفاقات التي تلته ، نقطة سؤال عريضة رسمتها قبل الاتفاقات أحداث مستقبل مصر ، وعلى ملامح المصيرة التي تتمخض عنها ما مصر ، تدفع بمن يفكر ولو قليلا ، الى الشك في استمرار ان الازمة الاقتصادية والانسانية ، وقد باتت على اهبة ان يروي غليلها وعد برزق قريب قادم من غيب امريكي . تدرك قليلا قليلا أن الخصب فيها وفي تربتها وأن خلل السلام يسرق لقمتها من فمها ، ويوقع بدم شهدائها وثائق العار

آخر الاخبار أن الطاقة وأزمتها المفتعلة حدت بالرئيس الى تبديل في الادارة وانشاء قوة امريكية « تحمي » ممن تحميها ؟ من نعاج الخليج الضالة في بذخ القصور ؟ المكلية وتقى المتبذلين على الموائد الخليعة ؟ من غزو خارجي أن نتخيل من أين فلا نجد ؟ من كل هذا أو بعضه أم من التي يدركها التنبؤ ولا تحصيها الحسابات ؟ انها أولا تحميها من قوة الشعب وتطور التاريخ . أن أقل المعلقين بأن التخلف الى زوال ومعه كل المتخلفين ، من مشايخ وحكام عقلها في معزل عن تقدم الامة . وجودها كله أصبح خطأ العشرين ، رغم المحاولات الرامية الى أن تضفي عليها للحياة . لكن من البديل ؟ الاستعمار نفسه ؟ أم قوة مضت اسرائيلية ؟... ان اية سياسة مدركة لا تذهب الى هذا أو في الامة سياسة بعيدة على مثل تلك المعطيات الهشة ... ضير بالحركات الثورية ، وبارتباط الاقطار العربية بمدرك ان القرن العشرين لا يبيح لمثل هذه الافكار أن تغدو وهو يعرف أنه اذا استطاع أن يقسر شعبا ما مدة من قادر على أن يقسره الى الابد .

لا بد اذن من خطة أخرى أدق وأذكى تزرع التخلف جديدة ، يغدو معها قابلا للبقاء ، لتبدل أهداف الجماهير قضية غير قضيتها تضربها من الداخل ، تخلق لها مشاكل اصبح حلها ضربا من المستحيل او ما يشبه المستحيل . السياسة في أكثر مناطق الشرق الاوسط من لبنان الى مصر ... كان التحضير لها طويلا .

لبنان ، أكثر بلدان الشرق الاوسط اتصالا بالحضارة بحكم موقعه الجغرافي ، جعلته الطائفية شبه وطن ، والتدمير وربما التقسيم ... ومن يدري حتى متى تطول أزمته

في ايران استطاعت حركة الخميني أن تستوعب ابعاد تجعل من اليسار قوة ثانوية واختارت معارك لا ندرك (مثل المعركة مع الاتحاد السوفياتي) وبدأت مسيرة تخطط تطول ، ولو أنها تدفعنا الى كثير من التشاؤم .

أما في مصر فقد كانت مقاومة مد التحرر أكثر حذرا ... يستطع عهد عبد الناصر أن يستأصل شأفة الاخوان المسلمين

فجعل منهم طاقة تتمكن من لم شملها والظهور متى اتيحت لها الفرصة . ألم أظافرهم فاختفوا ولم ينتهوا . وحين احتدم الصراع بين السادات واليسار جعلهم قوة احتياطية له فأطلقوا على أنفسهم اسم الجماعة الاسلامية . فالسادات ليست له أية قوة حقيقية في مصر لا في الجيش ولا في الشعب ، أما أحزابه فنعلم أنها مؤقتة تذهب معه .

بلغت تسريحات الضباط بعد زيارة القدس رقما لم يسبق لمصر أن عرفته . أما في الشعب فالبوليس والاجهزة هي التي تحشد له المصفقين .

انه بحاجة دائمة للتأييد كي يوهم الناس في مصر وخارج مصر أن الشعب معه .

بعد حرب تشرين والطريقة التي تمت بها على الجبهة المصرية ، وما أحاط بها من اتفاقات وشكوك وظنون جاء بهم للتأييد فأيدوا . أما بعد زيارته للقدس فقد ارتضوا منه بتفسير جديد أعوج لاحدى آيات القرآن : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها ... »

لقد نعمت الجماعة لقاء تساهلها في مصر ببعض الحرية في النشاط ، فانتشرت في الجامعات لتقوم بالدور المرسوم لها وهي أن تسد الدرب على قوى الثورة واليسار ، فهي رغم الارهاب والعسف أصدق بضمير الامة وتطلعاتها من كل الزيف الذي الى على نفسه نظام مصر أن يصبغ به وجه مصر .

لقد إستطاعت قيادة الاخوان في مصر أن تضلل قواعدها والهاءها عن قضاياها الوطنية : ابان كاهب ديفيد كان طلاب الجماعة ينادون بالاضراب من أجل أن تلبس الطالبات « الطرحة » في الجامعة .

لقد أغمض السادات عينه ، غير مختار على ما يبدو ، حتى الان على نشاطاتهم رغم تخوفه منهم ورغم محاولاتهم في أكثر من مناسبة اثارة النعرات الطائفية ، فهل هم القوة التي اختيرت بديلا له ، عندما ينتهي دوره ، علها تستطيع دفع الناصرية واليسار عن الوصول الى السلطة ؟

لقد دأبت الرجعية ، والاخوان بخاصة ، الى التأقلم حسب المناخ السياسي : في الكويت والخليج شبيه موقفها بالموقف في مصر . في السعودية نجدها تحت ابط الحكم وفي ركابه هامدة مادحة شاكرة ...

أما في سورية فان الموقف أشرس واشد عقدا . ان تطور سورية السريع باتجاه التقدم والوحدة ولانها باتت البلد المؤهل قبل غيره لخوض معركة مقبلة ، يدفع بقوى الرجعية والاستعمار الى أن تكبح مسيرتها بأية وسيلة كانت ، ومنها العنف .

لقد اصبح الحد اليساري الثوري ، الذي بدأ في الثلاثينات ، جماهير منظمة ، وبدأ بتحقيق منجزات غير هينة في البناء الداخلي وفي الحدة الاخيرة سلك طريق الوحدة مع العراق ، وهنا يكمن خطره . ان قيام دولة تجمع طاقات القطرين هي الحدث الاهم في مقبل مرحلتنا التاريخية. انها تفتح لنا باب تحقيق ذاتنا على مصراعيه ، وتستطيع قوتها الذاتية ان تحبط كل المخططات . فلنفتح جميعا عيوننا .

سنة ١٩٦٣ اتفقت الحكومتان السورية والعراقية على اقامة الوحدة بينهما (بعد فشل ميثاق ١٧ نيسان) ، فبرزت فجأة خلافات لا مبرر لها ولا منطق فيها ، سوى منطق انفصالي همه الا يدعها تتحقق. ولقد آلت في مدة وجيزة الى بقاء الانفصال والحدود بين جزءين من وطن واحد .

والآن ماذا يجري ؟

وحدة سورية ومصر لم يستطع الاستعمار ضربها الا من الداخل . مع هذا بقيت فكرة الوحدة مثلا تؤمن به الجماهير ، يظل عندها هدفا قريب التحقيق ... والمهم ، بل الاساسي ، هو استئصال الفكرة من صميم الشعب . تقسيم هذا الشعب الى طوائف وكيانات ضيقة انانية، خائف بعضها من بعض ، لا تأبه الا لمخاوفها ، ترى العداء أنى تلفتت، تخطط لمستقبلها بناء على هذا العداء .

ان أهم ما في التخطيط الاستعماري هو ضرب سورية من الداخل ثم من الخارج . أولا باشتعال النزاع بين عناصر الامة وطوائفها ، مما يؤدي الى مسخها وذبح طاقاتها ، وفتح باب التسليم على مصراعيه ... ان مجرد اضعاف القوة السورية يعني الغاء المواجهة مع العدو والرضى بما رضي به السادات .

لكن هنالك حقيقة لا بد من ذكرها ، اذا أغمضنا عنها الطرف خنا الثورة وايماننا بالامة ، ونقولها بكل صراحة وبساطة : لم يكن الثوريون العرب حتى الآن على قد الثورة أو على قد الامة . خلل عجيب يلازم طبائعهم . لم تستطع كل تضحيات الشهداء أن تمحوه ، كأن المرحلة التاريخية التي نعيشها لا تبيح للافكار أن تتفتح مع طاقاتها. لا أعني من ذلك القيادات فحسب . أعني القواعد والقيادات : كثير من الغرور والزيف ... كثير من الاعجاب بمظاهر السلطة ومفاتنها ... معزى النفس فنقول ما نضجوا بعد ... ما نضجت الثورة بعد ... علهم ينضجون بنضجها .

ان الثوري الذي لا ينقد نفسه ويراجع خط سيره الذاتي - من حين الى حين - وخط الثورة كله ، لا يحق له أن ينتسب للثورة . فهو دعي.

أليس لنا هنا أن نتساءل لم استطاعت الحركات الرجعية أن تجد لها من يائتف حولها من ابناء الشعب ؟ غالبيتهم في أي قطر عربي من ابناء المسحوقين الذين يرزحون تحت الظلم الاجتماعي ، فكيف يثقون بالرجعية ويتذكرون التقدم . المسؤول هو أولا الثوري نفسه لانه لم يقم معهم علاقة نضالية ... لانه لم يجد الجد كله في البحث المؤمن المتوفر عن ابناء الشعب ، حيث كانوا ... أراد أن يكون حاكما لا رفيقا ... نجد هذا في تفاصيل السلوك . ان الثوري الحقيقي ليس مسؤولا عن عثار الامة فحسب ، انه أيضا مسؤول عن اخطاء ابنائها ، متى كان مؤمنا تمكن من الوصول الى كل قلب .

لقد فشلت حتى الآن كل المخططات التي هيكت لامتنا ... لكننا نحن أيضا لم ننتصر ... حققنا بعض الانتصارات ... أما انتصرنا حققناه بعد .

لا أريد ان اخفف من قيمة هذه الانتصارات ، فليس بوسعي الا ان أرى اليها باعجاب وفرور . لكن النصر الحقيقي الاخير لا يحققه غير الجماهير الحرة .

لقد كانت المعركة مع الاحلاف الدليل الذي لا يقبل الرد فقد استطاعت في معزل عن الحكم ، وفي ظل الديمقراطية ، ان تحقق مشيئتها .

شيء لا بد لي من أن أقوله ان الكبح كان دائما عامل هزيمة ، والثوري الحقيقي هو مؤمن قبل ان يبدأ نضاله بحرية الامة ، لان النضال يكون عبر حرية الامة من أجل حرية الامة .

■